رابعاً
سورة الصَّفّ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا
تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ
مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي
رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ
﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ
يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ
بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ
بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾
يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي
جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ

وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤

بين يَدَيِ التّفسير

(١)

((الصِّراعُ أَزَلِيٌّ بين الحقّ والباطل ، واللهُ تعالى مُتِمُّ نورِهِ ومُظْهِرُ دين الإسلام على الدِّين كلّه))

الآيات (١-٩)

أَثْنَى على الله تعالى بما هو أهله كُلُّ ما في السّماوات وما في الأرض ونزّهه عن كلّ ما أَلْحَقَهُ به الظّالمون ممّا لا يليق بجلاله وعظمته سبحانه . وهو عزّ وجلّ العزيز في ملكه الحكيم في صنعته . وإذا كان كلّ ما في السّماوات وما الأرض يُسَبِّحُ بحمد الله تعالى ولكن لا نَفْقَهُ تسْبِيحَه ، فما أحرى الإنسان المكلّف أن يكون له قَصَبُ السّبق في مجال توحيد الله تعالى . وإذا كان كثيرٌ من النّاس يسجد لله تعالى فإنّ كثيراً منهم حَقَّ عليه العذاب . وإنّ مسئوليّة المؤمنين كبيرة تجاه دين الله تعالى كي ينتشر ويظهر على الدّين كلّه كي يكون ثمّة انسجامٌ وتناغم بين الكون الّذي يُسَبِّحُ لله تعالى وبين جنس الإنسان الّذي أصبح بحمد الله تعالى مؤمناً . وتتجسّد المسئوليّة في الإيمان بالله تعالى ، وبالرّسول صلّى الله عليه وسلّم ، وبالجهاد في سبيل الله تعالى بالنّفس والنّفيس . إنّ السّورة الكريمة تُنْكِرُ على المؤمنين أن يكتفوا بالقول دون العمل ، وأن يقولوا مالا يفعلون ، وتُبَيِّنُ أنّ الحقّ جلّ وعلا يُبْغِضُ أشدّ البغض أن يقول المؤمنون مالا يفعلون ، ويُحِبُّ الّذين يقاتلون في سبيله صفّاً واحداً متلاحماً كأنّهم بنيانٌ مُحْكَمُ البناء ، وكأنّه عُقِد بالرَّصاص . إنّ هذه الهيئة لِلْمُشاةِ في القتال أنكى للعدوّ . والمطلوب تحقيق هذه الغاية بالوسيلة المناسبة بشأن الحالات الأُخَرِ للقتال . والمطلوب تحقيق شرط النّظام والانضباط في القتال . وقد نصّت

سورة الصّفّ على هذا الشّرط ، كما نصّت سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام في الآية الكريمة الحادية والعشرين على الشّرط الآخر وهو شرط الطّاعة .

وكي يتحقّق بإذن الله تعالى الانسجام والتّناغم بين كلّ عناصر هذا الوجود في مجال توحيد الله تعالى والتّسبيح بحمده أرسل الله تعالى رسله بدين الإسلام لله تعالى ربّ العالمين ، ابتداءً بنوحٍ عليه السّلام وانتهاءً بمحمّد عليه الصّلاة والسّلام ، مروراً بموسى وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام .

وكان حديث السّورة الكريمة عن موسى وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام بقصد تسلية المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وتثبيت فؤاده عليه الصَّلاة والسّلام . إنّ موسى عليه الصّلاة والسّلام قد آذاه قومه كما أوذي محمّدٌ عليه الصّلاة والسّلام . وها هو ذا موسى عليه الصّلاة والسّلام يُنْكِرُ على قومه إيذاءهم له مع علمهم الأكيد بأنّه رسول الله تعالى إليهم . فلمّا أصرّ القوم على الميل عن طريق الحقّ زاد الله تعالى قلوب القوم انصرافاً عن الحقّ . والله تعالى لا يهدي القوم الفاسقين المنحرفين عن سواء السّبيل .

وإنّ عيسى عليه السّلام قد أُوذِيَ أذًى بليغاً من قومه حتى رفعه الله تعالى إليه . وها هو ذا عليه الصّلاة والسّلام يقول لقومه يا بني إسرائيل إنّي رسول الله تعالى إليكم ، مصدّقاً لما بين يديّ من التّوراة التي أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام كبير أنبياء بني إسرائيل ، ومبشّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه في السّماء أحمد ، هو خاتم النّبيّين ، وأشرف المرسلين ، عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين . فلمّا جاءهم محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم الرّسول الخاتم قالوا عن القرآن الكريم معجزته الكبرى هذا سحرٌ مبين . وقالوا عنه صلّى

الله عليه وسلّم إنّه ساحرٌ وشاعرٌ وكاهنٌ وكاذبٌ وما إلى ذلك : ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذباً ﴾

إنّه لا أحد أظلم ممّن افترى على الله تعالى الكذب وهو يُدْعَى إلى اعتناق دين الإسلام الّذي أكمله الله ورضيه لنا وأتمّ به النّعمة علينا . والله تعالى لا يهدى القوم الظّالمين الّذين يَصْرِفون العبادة عن الله تعالى الّذي يستحقّها وحده دون سواه ، ويظلمون الرّسول الكريم والقرآن العظيم بتكذيبهما ، ويظلمون أنفسهم بارتكاب الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى وهو الشّرك .

وهؤلاء الظّالمون المشركون يجتهدون في العمل على منع الآخرين من وصول الخير إليهم وذلك بالصّدّ عن سبيل الله تعالى في هيئة حرصهم على أن يطفئوا نور الله تعالى بأفواههم وكَذِبِهِمْ وسُخْفِهِمْ وهُرائهم . والله سبحانه وتعالى مُتمُّ نوره ليبلغ حيث بلغ اللّيل والنّهار ، ولو كره الكافرون . الله تعالى هو الّذي أرسل رسوله محمّداً صلّى الله عليه وسلّم بالهدى من الضّلالة وها هو ذا القرآن الكريم يهدي للطّريقة الّتي هي أقوم من كلّ طريق ، وبالدّين الحقّ ، دين الإسلام لله تعالى ربّ العالمين ، ليظهر دين الإسلام الّذي بعث به محمّداً صلّى الله عليه وسلّم على الدّين كلّه ولو كره المشركون . وإنّ على المسلمين مسئوليّةً عظيمةً ضخمةً تجاه هذا الدّين الّذي أكمله الله تعالى ورضيه لهم وأتمّ به النّعمة عليهم كي يَظْهَرَ ، كما وَعَدَ الله تعالى ووَعْدُهُ الحقّ ، على الدّين كلّه .

---

(١) سورة الكهف ٥ .

ودين الحقّ هذا كما أنّه بحاجة إلى الدّعوة إليه بالحجّة واللّسان ، هو بحاجةٍ إلى الذّود عنه بالمال والسّنان .

(٢)

((جِهادُ المؤمنين بالأموال والأنفس ثَمَنُ النّصر المبين والفتح القريب والخلود في جنّات النّعيم))

الآيات (١٠-١٤)

يا أيّها الّذين آمنوا بالله ورسوله هل أدلّكم على تجارةٍ تنجيكم من عذابٍ أليم في الآخرة . تؤمنون بالله تعالى وبرسوله صلّى الله عليه وسلّم وتجاهدون في سبيل الله تعالى لإعلاء كلمته بأموالكم وأنفسكم . ذلكم الإيمان والجهاد خيرٌ لكم عند الله تعالى إن كنتم تعلمون الخير فاستبقوا إليه . إنّكم إن فعلتم ذلك يغفر الله تعالى ذنوبكم ويدخلكم جنّاتٍ تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار ، ويدخلكم مساكن طيّبةً في جنّات الخلد . ذلك الفوز العظيم حقاّ . ويُعْطِكُمْ نعمةً أخرى عاجلةً تحبّونها . هي نصرٌ من الله تعالى مبين ، وفتحٌ قريب . وبشّر أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم المؤمنين بالفتح المبين وجنّات النّعيم .

يا أيّها الّذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله صلّى الله عليه وسلّم كونوا أنصار دين الله تعالى ، كما كان حَواريو عيسى ابن مريم عليه السّلام أنصار دين الله تعالى ، حين قال عليه السّلام للحَواريّين مَنْ أنصاري في توجّهي لنُصرة دين الله تعالى . قال الحَواريّون نحن أنصار دين الله تعالى . فآمنت طائفةٌ من بني إسرائيل بعيسى عليه السّلام عبدالله تعالى ورسوله ، وكفرت طائفةٌ أخرى غَلَتْ فيه عليه السّلام فقالت هو الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة : ﴿ كَبُرَتْ كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذباً ﴾ فَأَيَّدَ الله تعالى الّذين

آمنوا إيماناً صحيحاً بِبِعْثَةِ محمّد صلّى الله عليه وسلّم ونَصْرِهِمْ على عدّوهم فأصبحوا ظاَهرين غالبين بنعمةٍ من الله تعالى وفضل .

---

(١) سورة الكهف ٥ .

التّفسير

(١)
((الصّراعُ أَزَلِيٌّ بين الحقّ والباطل ، واللهُ تعالى مُتِمُّ نُورِهِ ومُظْهِرُ دين الإسلام على الدِّين كُلِّه))
الآيات (١- ٩)

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾

سَبّح لله تعالى ، وأثنى عليه الخير كلّه ، ونزّهه عن كلّ ما يليق به عزّ وجلّ كلّ ما في السّماوات ومافي الأرض . وهو جلّ وعلا العزيز في ملكه الحكيم في صنعه .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَـٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴿٤﴾

كبر مقتاً : المقت البغض الشّديد لمن تراه تَعاطَى القبيح[1] .

كأنّهم بنيانٌ مرصوص : كأنّهم في اصطفافهم هنالك حيطانٌ مبنيّةٌ قد رُصَّ فَأُحْكم وأُتْقِن فلا يغادر منه شيئاً . وكان بعضهم يقول : بُني بالرَّصاص[2] أي محكم كأنَّما بني بالرَّصاص[3] .

سبب النّزول

قال ابن عبّاس : كان ناسٌ من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لَوَدَدْنا أنّ الله دلّنا على أحبّ الأعمال إليه فنعمل به . فأخبر الله نبيّه أنّ أحبّ الأعمال إليه إيمانٌ بالله لا شكّ فيه ، وجهادُ أهل معصيته الّذين خالفوا الإيمان ولم يقرّوابه . فلمّا نزل الجهاد كره ذلك أناسٌ من المؤمنين ، وشقّ عليهم أمْرُه . فأنزل الله تعالى الآيات الكريمات[4] ويقال إنّ السّورة الكريمة نزلت إلى آخرها[5] .

يا أيّها الّذين آمنوا بالله ورسوله لِمَ تقولون ما لا تفعلون في مجال الجهاد في سبيل الله تعالى . لِمَ تطلبون الإذن بالجهاد في سبيل الله تعالى قبل الهجرة وقبل الإذن بالجهاد

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : "مقت" ٢/ ٦٠٨ .
(٢) تفسير الطّبري ٢٨/ ٥٦ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : "رص" ١/ ٢٦٠ .
(٤) تفسير الطّبري ٢٨/ ٥٥ وأسباب النّزول ٤٩٢ .
(٥) أسباب النّزول ٤٩١ .

وتُلِحُّون في الطّلب . وحينما أُذِنَ لكم في الجهاد نكص بعضكم وتثاقل إلى الأرض . كبر مقتاً عند الله تعالى وبغضاً شديداً أن تقولوا بألسنتكم مالا تفعلون بجوارحكم . إنّ الله تعالى يحبّ الّذين يقاتلون في سبيله عزّ وجلّ صفّاً كأنّهم بنيان مرصوصٌ محكمٌ يشدّ بعضه بعضاً ، وكأنّ ذلك البنيان المحكم عُقِد بالرَّصاص ، فلا شقوق فيه ولا نتوءات .

وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥

فلمّا زاغوا : فلمّا عَدَلُوا وجارُوا عن قصد السّبيل[1]

أزاغ الله قلوبهم : أمال الله قلوبهم عنه[2] .

واذكر إذ قال موسى بن عمران عليه السّلام لقومه من بني إسرائيل يا قوم لم تؤذونني وأنتم تعلمون علم اليقين أنّي رسول الله تعالى إليكم . فلما زاغوا عن الحقّ ، وانحرفوا عن جادّة الصّواب ، أزاغ الله قلوبهم : أمال الله قلوبهم عنه

واذكر إذ قال موسى بن عمران عليه السّلام لقومه من بني إسرائيل يا قوم لم تؤذونني وأنتم تعلمون علم اليقين أنّي رسول الله تعالى إليكم . فلما زاغوا عن الحقّ ، وانحرفوا عن جادّة الصّواب ، **أزاغ الله تعالى قلوبهم ، ومال بها عن سواء السّبيل ، وزادها عمًى إلى عماها . والله تعالى لا يهدي القوم الفاسقين المنحرفين عن سواء السّبيل، المصرّين على إتيان كلّ قبيح .**

والآية الكريمة فيها تسلِيةٌ للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم الّذي آذاه المنافقون كما أُوذيَ موسى عليه السّلام . جاء في سورة الأحزاب[3] قول الحقّ جلّ وعلا :

---

(١) تفسير الطّبري ٢٨/ ٥٧ .

(٢) تفسير الطّبري ٢٨/ ٥٧ .

(٣) الآية ٦٩ .

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تكونوا كالّذين آذَوْ موسى فبرّأه الله ممّا قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾ رَوَى البخاريّ في صحيحه[1] عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال : قسم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قَسْما ، فقال رجل : إنّ هذه لقسمةٌ ما أريد بها وجه الله . فأتيت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فأخبرته فغضب حتّى رأيت الغضب في وجهه ثمّ قال : يرحم الله موسى ، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر .

ورَوَى[2]عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إنّ موسى كان رجلاً حييّا ستّيرا[3] لا يرى من جلده شيءٌ استحياءً منه[4] فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يستتر هذا التّستّر إلاّ من عيبٍ بجلده ، إمّا برص ، وإمّا أُدْرة[5] وإمّا آفة . وإنّ الله أراد أن يبرّئه ممّا قالوا لموسى : فخلا يوماً وَحْدَه فوضع ثيابه على الحجر ثمّ اغتسل . فلمّا فَرَغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإنّ الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حَجَر ، ثوبي حَجَر . حتّى انتهى إلى ملأٍ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله وأبرأه ممّا يقولون . وقام الحَجَر فأخذ ثوبه فلبِسه وطفِق بالحجَر ضرباً بعصاه فوالله إنّ بالحَجَر لَنَدَباً[6] من أثر ضربه ثلاثاً

---

(١) فتح الباري ٦/ ٤٣٦ حديث رقم ٣٤٠٥ .
(٢) فتح الباري ٦/ ٤٣٦ حديث رقم ٣٤٠٤ وصحيح البخاري ٤/ ١٩٠ .
(٣) ستّيرا : السَّتير والسِّتير : من شأنه حبّ السَّتْر .
(٤) هذا يشعر بأنّ اغتسال بني إسرائيل بمحضر منهم كان جائزاً في شرعهم . وإنّما اغتسل موسى وَحْدَهُ استحياء . فتح ٦/ ٤٣٧ .
(٥) أدرة على وزن غرفة : انتفاخ الخُصية .
(٦) النَّدَب أثر الجُرح والجمع نُدوب .

أو أربعاً أو خمساً . فذلك قوله[1] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تكونواكالّذين آذوا موسى فبرّأه الله ممّا قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾ .

(١) سورة الأحزاب ٦٩ وفي نصّ الحديث في فتح الباري نقص أكملناه من صحيح البخاري ٤/ ١٩١

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

فلمّا جاءهم بالبيّنات : فلمّا جاءهم أحمد بالبيّنات وهي الدّلالات الّتي آتاه الله حججاً على نبوّته[1] .

واذكر إذ قال عيسى ابن مريم عليه السّلام آخر أنبياء بني إسرائيل لقومه : يا بني إسرائيل : إنّي رسول الله تعالى إليكم ، مصدّقاً لما أوْحَى الله تعالى بين يديّ من التوراة إلى موسى عليه السلام . ومبشّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد . فلمّا جاءهم فعلاً خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين بالآيات البيّنات ، والحجج الواضحات قالوا: هذا القرآن سحرٌ مبين لا يخفى على أحد أنّه سحر !

رَوَى البخاريّ[2] عن محمّد بن جبير بن مطعِم عن أبيه ﷺ قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : لي خمسة أسماء : أنا محمّد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الّذي يمحو الله بي الكفر . وأنا الحاشر الّذي يُحْشَر النّاس على قدمي . وأنا العاقب .

والاسم محمّدٌ عَلَمٌ منقول من صفة الحمد ، وهو بمعنى محمود، وفيه معنى المبالغة[3]

والاسم أحمد عَلَمٌ منقول من صفة الحمد وهي أفعل التّفضيل ومعناه أحمد الأنبياء أي أكثرهم حمداً أو أعظمهم في صفة الحمد[4] .

والاسم العاقب يعنى الخاتم[5] .

---

(١) تفسير الطّبري ٢٨/ ٥٧ .
(٢) فتح الباري ٦/ ٥٥٤ حديث رقم ٣٥٣٢ وانظر ٨/ ٦٤٠ حديث رقم ٤٨٩٦ .
(٣) فتح الباري ٦/ ٥٥٥ .
(٤) فتح الباري ٨/ ٥٥٥ .
(٥) فتح الباري ٥/ ٥٥٦ .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ
وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾

إنّه لا أحد أظلم ممّن افترى على الله تعالى الكذب بالزّعم أنّ القرآن الكريم سحرٌ وأنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ساحر : ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا ﴾[1] وهو يُدْعَى إلى دين الإسلام الّذي أكمله الله تعالى ورضيه لعباده وأتمّ به النّعمة عليهم . والله تعالى لا يهدي القوم الظّالمين الّذين ظلموا العبادة فصرفوها لغير الله تعالى وظلموا غيرهم وظلموا أنفسهم .

وإنّ هؤلاء الظّالمين ، أعداءَ الله تعالى وأعداءَ الإسلام والمسلمين يريدون ليطفئوا نور الله تعالى ، ودين الإسلام الّذي بعث به محمّداً صلّى الله عليه وسلّم وجعل القرآن الكريم معجزته الكبرى. إنّ هؤلاء الأعداء يريدون ليظفئوا نور الله تعالى بأفواههم وبكلامهم وبكذبهم وافترائهم وهرائهم . والله سبحانه وتعالى مُتِمُّ نُورِهِ ومُعزُّ دِينِهِ وناصِرُ أوليائه وهازمُ أعدائه شرّ هزيمة ولو كره الكافرون في كلّ زمانٍ ومكان[2] .

---

(١) سورة الكهف ٥ .

(٢) وجه الشّبه كبيرٌ بين الآية الكريمة وبين الآية الثّانية والثلاثين من سورة التّوبة الّتي سبق دراستها في التفسير البسيط ١٠/ ١٦٩ .

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٩﴾

الآية الكريمة هي الآية الكريمة الثّالثة والثلاثون من سورة التّوبة المدنيّة الكريمة . وسبق دراسة الآية الكريمة[1] والآية الكريمة كذلك كبيرة الشّبه بالآية الكريمة الثّامنة والعشرين من سورة الفتح المدنيّة الكريمة .

الله تعالى هو الّذي أرسل رسوله محمّداً صلّى الله عليه وسلّم بدين الحقّ دين الله تعالى ، دين الإسلام لله تعالى ربّ العالمين ، ليظهر جلّ وعلا دين الإسلام الّذي بعث به محمّداً صلّى الله عليه وسلّم على الدّين كلّه ، السّماويّ وغير السّماويّ ، ولو كره المشركون .

ودين الإسلام اليوم إن لم يكن الأكثر أتباعاً فإنّه في طريقه كي يكون بإذن الله تعالى كذلك . والمسلمون عليهم مسئوليّةٌ كبيرةٌ أمام الله تعالى وأمام عباد الله تعالى كي يظهر هذا الدّين على الدّين كلّه ، وكفى بالله تعالى شهيداً ، ولا أحد أصدق من الله تعالى حديثاً وقيلاً .

---

(١) التفسير البسيط ١٠/ ١٧٠ و ١٧١ .

(٢)
((جهادُ المؤمنين بالأموال والأنفس ثَمَنُ النّصر المبين
والفتح القريب والخلود في جنّات النّعيم))
الآيات (١٠-١٤)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ
عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ
خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ
جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ
ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ
قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾

وتجاهدون في سبيل الله : وتجاهدون في دين الله وطريقه الّذي شرعه لكم[1]

يغفر لكم ذنوبكم : إن تفعلوه يغفر لكم[2] .

جنّات عدن : جنّات إقامة[3] .

وأخرى : ويؤتك نعمةً أخرى[4] .

نصرٌ من الله : نصرٌ خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره هي أي النّعمة الأخرى[5] .

يا أيّها الّذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله صلّى الله عليه وسلّم هل أدلّكم على تجارةٍ رابحةٍ تنجيكم من عذابٍ أليمٍ يوم الدّين . تؤمنون بالله تعالى وبرسوله صلّى الله عليه وسلّم حقّ الإيمان ، وتجاهدون في سبيل الله تعالى ومن أجل إعلاء كلمته ونشر دينه في

---

(١) تفسير الطّبري ٢٨/ ٥٨ .
(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢/ ٣٥٥ والجلالين .
(٣) تفسير الطّبري ٢٨/ ٥٩ .
(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢/ ٣٥٥ والجلالين .
(٥) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢/ ٣٥٥ .

الخافقين[1] بأموالكم وبأنفسكم . ذلكم الجهاد بالنفس والنَّفِيس خيرٌ لكم في الدّنيا والآخرة إن كنتم تعلمون الأمر على حقيقته ، وتعرفون الطّريق الصّحيح الّذي يُفْضِي بكم إلى النّعيم المقيم في جنّات عَدْن .

إنّكم إن فعلتم ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى يغفر لكم ذنوبكم ، ويجزل لكم المثوبة، ويدخلكم جنّاتٍ تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار ، ويدخلكم مساكن طيّبةً في جنّات عدن وبساتين إقامة . ذلك الفوز العظيم والنّجاح الكبير حقّا .

ويؤتكم نعمةً أخرى عاجلةً تحبّونها . هي نصرٌ من الله تعالى وفتحٌ قريبٌ ، وتمكينٌ لدين الله تعالى في الأرض ، وللمؤمنين بأن يستخلفهم في الأرض ، ويبدلهم من بعد خوفهم أمنا . وبشّر أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم المؤمنين بالنّصر والفتح المبين .

---

(١) الخافقان مثنّى الخافق بمعنى الأفق ، أفق المشرق وأفق المغرب .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ
أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ
أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت
طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَـٰهِرِينَ ١٤

كونوا أنصار الله : كونوا أنصار دين الله[١] .

كما قال عيسى ابن مريم : كما كان الحواريّون كذلك[٢] حين قال لهم عيسى ابن مريم[٣] .

للحواريّين : الحواريّون أنصار عيسى عليه السلام . والمفرد الحَواريّ . سمّوا بذلك لبياض ثيابهم أو لأنّهم غسّالون يبيّضون الثّياب . ثمّ أصبح اللّفظ يطلق في معنى النّصير. وهذا رأي الطّبريّ رحمه الله تعالى رحمة واسعة[٤] وهو رأيٌ وجيه . وسبق أن وقفنا عنده مليّاً[٥] .

يا أيّها الّذين آمنوا بالله ورسوله كونوا أنصار دين الله تعالى كما كان حواريو عيسى عليه السّلام أنصار دين الله تعالى حين قال عيسى ابن مرمي عليه السّلام للحواريّين أنصاره مَنْ أنصاري في توجّهي إلى نُصْرة دين الله تعالى ؟ قال الحواريّون نحن

---

(١) الجلالين .
(٢) الجلالين .
(٣) انظر الكشّاف ٣/ ٢٢٨ .
(٤) تفسير الطّبري ٣/ ٢٠٠ .
(٥) التفسير البسيط ٣/ ٢٩٥ و ٢٩٦ .

أنصار دين الله تعالى . فآمَنَتْ طائفةٌ من بني إسرائيل إيماناً صحيحاً واعتقدت أنّ عيسى عليه السّلام عبد الله ورسوله . وكفرت طائفةٌ أخرى غلت في عيسى عليه السّلام فزعمت أنّه الله تعالى ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة : ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا﴾[1] فأيّدنا الّذين آمنوا إيماناً صحيحاً على عدوّهم المشرك فأصبح المؤمنون ظاهرين على عدوّ الله وعدوّهم ببعثة خاتم النّبيين وأشرف المرسلين محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم .

ويلاحظ أنّ في الآية الكريمة لفظ الأنصار ولفظ الحَواريّين . وفي الإسلام كان لفظ الأنصار من حظّ الأوس والخزرج سكّان المدينة المنوّرة . والمهاجرون سبقوا الأنصار إلى نُصْرة دين الله تعالى . وفي الإسلام يتقدّم المهاجرون ويأتي ذكرهم أوّلاً يليهم الأنصار . وبشأن الحَواريّين في الإسلام عن قتادة أنّ الحواريّين كلّهم من قريش ، أبوبكر ، وعمر ، وعليّ ، وحمزة ، وجعفر ، وأبو عبيدة ، وعثمان بن مظعون ، وعبدالرّحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقّاص ، وعثمان ، وطلحة بن عبيد الله ، والزّبير ابن العوّام[2] رَوَى البخاريّ[3] عن جابرٍ ﷺ قال : قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : إنّ لكلّ نبيٍّ حَوارِياً ، وإنّ حَواريَّ الزّبيرُ بن العَوّام .

---

(١) سورة الكهف ٥ .

(٢) تفسير الطّبري ٢٨/ ٦٠ .

(٣) فتح الباري ٧/ ٧٩ حديث رقم ٣٧١٩ .

تعقيب

نودّ أن نشير في هيئة نقاطٍ إلى بعض الأمور المتعلّقة بالسّورة الكريمة :

١- سورة الصّفّ من المدنيّ من القرآن الكريم الّذي نزل على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعد الهجرة[١] .

٢- عدد آيات السّورة الكريمة أربع عشرة آية . وعدد كلماتها مائتان وإحدى وعشرون كلمة . وعدد حروفها تسعمائة وستّةٌ وعشرون حرفاً[٢] .

٣- سورة الصّف يقال لها أيضاً سورة الحَوارِيّين[٣] .

٤- سورة الصّفّ إحدى سور القرآن الكريم الّتي تُعْنَى بالجهاد في سبيل الله تعالى بالأموال والأنفس عنايةً كبيرة ، وهي مع اخواتٍ لها كالأنفال ومحمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم أو القتال والتّوبة وآل عمران والأحزاب وما إليها ممّا يتلوه القرّاء تحريضاً على القتال في سبيل الله تعالى .

٥- في الآية الكريمة الرّابعة الحثّ على تحقيق شرطٍ من أهمّ الشّروط في القتال وهو النّظام أو الانضباط . قال تعالى : ﴿ إنّ الله يحبّ الّذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنّهم بنيانٌ مرصوص ﴾ وفي الآية الكريمة الحادية والعشرين من سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام أو القتال الحثّ على الشّرط الآخر من أهمّ شروط القتال وهو

---

(١) الإتقان ١/ ٤٣ والجلالين وتفسير ابن كثير ٨/ ١٣٠ وفي ظلال القرآن ٣٥٤٩ والمحرّر الوجيز ١٥/ ٥٠٢ وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢٨/ ٥٧ والبحر المحيط ٨/ ٢٥٩ وتفسير القرطبي ٦٥٥٦ وأسباب النّزول ٤٩١ .

(٢) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢٨/ ٥٧ .

(٣) فتح الباري ٨/ ٦٤١ .

الطّاعة . جاء في الآيتين الكريمتين العشرين والحادية والعشرين من سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ ويقول الّذين آمنوا لولا نزّلت سورة . فإذا أنزلت سورةٌ محكمة وذُكِر فيها القتال رأيت الّذين في قلوبهم مرضٌ ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت فأولى لهم . طاعةٌ وقولٌ معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾ .

٦- جاء في سورة الصّفّ وَحْدَها اسم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : ﴿ أحمد ﴾ وذلك في الآية الكريمة السّادسة على لسان عيسى عليه السّلام، آخر أنبياء بني إسرائيل. قال تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إنّي رسول الله إليكم مصدّقاً لما بين يديّ من التّوراة ومبشّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد . فلمّا جاءهم بالبيّنات قالو ا هذا سحرٌ مبين ﴾ .

٧- من أهداف السّورة الكريمة تسلية المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وذلك بحديثها عن موسى عليه السّلام الّذي آذاه قومه وعن عيسى عليه السّلام الّذي همّ اليهود بصلبه فرفعه الله تعالى إليه .

٨- الآية الكريمة التّاسعة في السّورة الكريمة هي الآية الكريمة الثّالثة والثّلاثون من سورة التّوبة الكريمة . قال تعالى : ﴿ هو الّذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون ﴾ ووجه الشّبه كبيرٌ بين الآية الكريمة وبين الآية الكريمة الثّامنة والعشرين من سورة الفتح المدنيّة الكريمة . قال تعالى ﴿هو الّذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه . وكفى بالله شهيداً ﴾ والآيات الكريمات الثّلاث في مجال الإنباء بالغيب .

٩- وجه الشّبه كبيرٌ بين الآية الكريمة الثّامنة . قال تعالى : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون ﴾ وبين الآية الكريمة الثّانية والثّلاثين من سورة التّوبة المدنيّة الكريمة . قال تعالى : ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبي الله إلاّ أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون ﴾ والآيتان الكريمتان تقرّران الصّراع الأزليّ بين الخير والشّرّ وانتصار الخير بإذن الله تعالى أخيراً دائماً.

١٠-في مجال تبيين وَحْدَةِ السّورة الكريمة عضويّاً وأخذ مسائلها برقاب بعض يصحّ أن نقول بإيجاز في هذا الشّأن ما يلي . إنّ كلّ ما في السّماوات وما في الأرض يسبّح بحمد الله تعالى . وينبغي على جنس الإنسان أن لا يتخلّف عن الرّكب . وإنّ الحقّ جلّ وعلا ليرسل رسله ابتداءً بنوحٍ عليه السّلام وانتهاءً بمحمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم من أجل إخراج النّاس من ظلمات الشّرك والجهل إلى نور التّوحيد والعلم. وإنّ السّياق لينصّ على موسى عليه السّلام كبير أنبياء بني إسرائيل وعلى عيسى عليه السّلام آخر أنبياء بني إسرائيل . وكلّ منهما صادف العنت الشّديد من القوم . وفي ذكر هذين الرّسولين الكريمين تسليةٌ للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم. وليس بين عيسى ومحمّد عليهما الصّلاة والسّلام نبيّ . وقد بشّر عيسى عليه السّلام بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم . وإنّ الصّراع بين الخير والشّر شديد . ومن الأدلّة على ذلك معاناةُ كلٍّ من موسى وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام من قومهما . ومن الأدلّة على ذلك أيضاً اجتهاد الكافرين أن يطفئوا نور الله تعالى ودين الإسلام والهَدْي السّماويّ بأفواههم المريضة . والله تعالى مُتِمُّ نُورِه ومُظْهِرُ دين الإسلام على الدّين كلّه . وكما احتاج الحقّ إلى سلاح الحجّة والبيان ضدّ الباطل احتاج إلى

السّيف والسّنان والمال . إنّ العناية كبيرةٌ في السّورة الكريمة بالجهاد في سبيل الله تعالى . وهذه العناية كما تبدأ بها السّورة الكريمة تنتهي بها . إنّ صدر السّورة يقرّر حبّ الله تعالى للّذين يجاهدون في سبيله صفّاً كأنّهم بنيانٌ مُحْكَمٌ عُقِد بالرَّصاص . وإنّ عَجُزَ السّورة الكريمة يدعو إلى الإيمان بالله تعالى وإلى الجهاد مع رسوله صلّى الله عليه وسلّم بالأموال والأنفس . إنّ ثمرة الجهاد بالأموال والأنفس النّصر من الله تعالى والفتح القريب في الدّنيا ، والخلود في جنّات النّعيم . إنّ المطلوب من المؤمنين أن يكونوا أنصار دين الله تعالى كما كان حَواريّو عيسى عليه السّلام أنصار دين الله تعالى . وإنّ دين الإسلام الّذي بعث الله تعالى به محمّداً صلّى الله عليه وسلّم سيظهره الله تعالى على الدّين كلّه ولو كره المشركون . وإنّ هذا الظهور كما وعد الله تعالى ووعده الحقّ ، بحاجةٍ من المؤمنين إلى الجهاد في سبيل الله تعالى بالحجّة واللّسان والنّفس والنّفيس . نسأل الله تعالى أن يُلْهِمَنا رشدنا وأن يوفّقنا لكلّ ما يحبّ ويرضى . آمين .

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين .

الظّهار وقول الزّور[٧] .

---

(١) سورة الأحزاب ٤ .

مكّة المكرّمة

مساء يوم الثّلاثاء ٦/ ١٠/ ١٤٢٣هـ

الموافق ١٠/ ١٢/ ٢٠٠٢م .